انعكاسات التجربة الشخصية على فلسفة الحضارة:
جدلية الذات والواقع في فكر مالك بن نبي

Reflections of Personal Experience on the Philosophy of Civilization: The Dialectic of Self and Reality in Malek Bennabi's Thought

نورهان مومنة | المدرسة العليا للأساتذة «البشير الإبراهيمي»، القبة- الجزائر
Moumenanoure29@gmail.com

تاريخ الاستلام: 05/ 05/ 2026 - تاريخ القبول: 01/ 06/ 2026 - تاريخ النشر: 30/ 07/ 2026

الملخص

تُحلّل الدراسة فكر مالك بن نبي لفك ارتباك النهضة الإسلامية بظاهرة «القابلية للاستعمار». اعتمدت المنهج الوصفي التحليلي لربط سيرته بمشروعه الحضاري، وتوصلت إلى أن النهضة تبدأ من بناء «الإنسان» لا تكديس «الأشياء». تخلص النتائج إلى ضرورة تحويل أفكاره إلى أدوات وظيفية لتجاوز الاستقالة التاريخية وتحقيق الفعالية الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية :مالك بن نبي؛ القابلية للاستعمار؛ النهضة؛ الفعالية.

Abstract

This study analyzes Malek Bennabi's thought regarding the Islamic renaissance and "Colonizability." Using a descriptive-analytical approach, it links his biography to his civilizational project. It concludes that renaissance starts with building "Man" rather than accumulating "Things." The results emphasize transforming his ideas into functional tools to achieve social effectiveness and end historical stagnation.

Keywords: Malek Bennabi, Colonizability; Renaissance; Effectiveness.

1. مقدّمة:

يُعدّ البحث في الشخصيات الوطنية أحد أهمّ السّبل لفهم التاريخ الجزائري، وإبراز رموزه الفكرية والثقافية، إذْ أنّ هذه الشخصيات لم تقتصر أدوارها على مقاومة الاستعمار بالسّلاح فقط، بل قدّمت مشاريع فكرية وحضارية تركت أثراً عميقًا في الوعي الجمعي للأمة، ومن بين هذه الشخصيات؛ يبرز اسم مالك بن نبي (1905-1973م)، الذي يُعتبر من أبرز المفكّرين الجزائريين في القرن العشرين، حيث تميَّز بمشروعٍ فكريٍّ شاملٍ، ركّز فيه على مشكلة الحضارة، وأعاد صياغة العلاقة بين المجتمع والدّين والفكر، في مواجهة التخلّف والاستعمار.

قد شكّلت سيرة مالك بن نبي وتجربته الفكرية نموذجًا غنيًّا للدراسة التاريخية؛ لأنّها تجمع بين الواقع الاستعماري الذي عاشته الجزائر، وبين الرؤية الإصلاحية الحضارية التي حاول من خلالها أن يقدّم حلولًا عمليّةً لأزمات المجتمعات الإسلامية. كما أنّ فكره لا يزال حاضراً في النقاشات الفكرية والسياسية المعاصرة ، ممّا يزيد من أهمية إعادة قراءته اليوم.

ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث، الذي يهدف إلى التعريف بمالك بن نبي كشخصية وطنية بارزة، من خلال دراسة حياته، وسياقه التاريخي، وتحليل أبرز مؤلّفاته، ثمّ إبراز أثره في الفكر الجزائري والعالمي الإسلامي، والغاية من ذلك ليست فقط التوثيق لمساره، بل أيضًا محاولة فهم المشروع الحضاري الذي نادى به بوصفه جزءا من التراث الفكري الجزائري الذي يستحق الإبراز.

1. 1 أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في قيمتها العلمية والعملية المتمثّلة في التعريف بمالك بن نبي، كشخصية وطنية محورية في التاريخ الجزائري، مع تسليط الضوء على الارتباط الوثيق بين منجزه الفكري والسياق التاريخي الذي عاصره، بين مطرقة الاستعمار وسندان التحرر الوطني. كما تتجلّى القيمة الفكرية للبحث في تحليله العميق للمشروع الحضاري النبوي، وإبراز عناصره الجوهرية المتمثّلة في: (الإنسان، والتراب، والوقت)، وكيفية إسهام هذا المزيج في تطوير أطر الفكر الإسلامي الحديث. علاوة على ذلك؛ تبرز راهنيّةُ هذه الدراسة في تقييم مدى فاعلية أفكار «بن نبي»، وقدرتها على الاستمرارية في الزمن الحاضر، من خلال تقديم مقاربات ومنهجيات وظيفية، تسعى لطرح حلول عملية للأزمات المعقّدة التي تواجه المجتمعات الإسلامية اليوم.

1. 2 إشكالية الدراسة:

تكمن الإشكالية في التساؤل الجوهري التالي: كيف انعكست التجربة الشخصية والمسار الحياتي لمالك بن نبي على تشكيل فلسفته الحضارية؟ وهل تمتلك هذه الفلسفة من مقوّمات

النّجاعة، والآليات الإجرائية، ما يجعلها قادرةً على تفكيك مشكلات واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وتجاوز أزماتها الراهنة؟ وينبثق عنها أسئلة فرعية حول المحدّدات السير-ذاتية والفكرية الناتجة عن ثنائية النشأة في الجزائر، والتكوين الهندسي بفرنسا، والمعالم الفلسفية والمفاهيمية لبنيته الحضارية واشتقاقه لمعادلة: (حضارة = إنسان + تراب + وقت)، وصولاً إلى مدى نجاعة أدواته المعرفية في تشريح القابلية للاستعمار، وتفسير التبعية الحديثة، فضلاً عن راهنية نقده لـ «المكدّسات» في ظلّ العولمة المعاصرة.

3.1 منهجية الدراسة:

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي النقدي؛ كونه الأداة المعرفية الأكثر اتّساقاً مع تطلّعات البحث وأهدافه الإجرائية:

فالشقّ الوصفي: يتجلّى في رصد واستقراء النصوص، والمحطّات الحياتية المفصلية في سيرة «بن نبي»، وإعادة توصيف الأبعاد الذاتية والمفاهيم الحضارية، كالفكرة المجرّدة والمجسّدة، والقابلية للاستعمار، كما تتبدّى في منجزه الفكري.

والشقّ التحليلي: يسعى إلى تفكيك هذه المادة المصدرية المستقرأة، عبر فحص الروابط البنيوية الكامنة بين وطأة الواقع الشخصي، وتوليد المفاهيم الحضارية، متجاوزاً بذلك حدود العرض والجمع، إلى مستويات التفسير والربط النسقي.

والشقّ النقدي: يتولّى عملية إعادة اختبار وتقييم هذه الأدوات المفاهيمية لفيلسوف الفعالية، ومساءلة مدى راهنيتها، وقدرتها الوظيفية على تفكيك علل الإنسان المسلم، ومعالجة أزمات الواقع الإسلامي الرّاهن، بعيداً عن الانكفاء التاريخي أو التكرار الوثائقي المجرد.

4.1 الدراسات السابقة:

- كتاب «**مالك بن نبي، رجل الحضارة: مسيرته وعطاؤه الفكري**» للدكتور مولود عويمر.

يُعدّ هذا الكتاب دراسةً تحليليةً استقصائيةً رائدةً تهدف إلى تتبّع المنظومة الفكرية لمالك بن نبي، عبر ربط محطّات سيرته الحياتية بإنتاجه النظري، ليتجاوز بذلك القراءات الإصلاحية المجرّدة دون الالتفات إلى طبيعة الدراسة (الفلسفية-الفكرية-السيرذاتية) التي تفسّر هذا النسق.

وتكمن القيمة العلمية للكتاب في قدرته على تفكيك إشكالية «الفعّالية الاجتماعية» وتحويل الطاقات الكامنة إلى بواعث حضارية حيّة، مع تسليط الضوء على مراجعات «بن نبي» الأيديولوجية، وتفكيكه لمرامي الصّراع الفكري التي تخدم التقدّم، ممّا يجعله مرجعاً يبرز إمكانية تسمية «بن نبي» بـ«فيلسوف الفعالية». ومن الناحية النقدية، يغلب على الكتاب التركيز على رصد «المسيرة الشاملة»

والمراجعات التاريخية لتيارات العصر، دون الدخول في مناقشات نقدية واسعة، تعيد اختبار تلك الأدوات المفاهيمية (كالفكرة المجردة والمجسدة) ومدى نجاعتها الوظيفية الإجرائية في تفكيك علل الإنسان المسلم في واقعنا المعاصر، ممّا يجعله «خلاصة أمينة» لربط السيرة بالنص الفكري أكثر من كونه دراسة نقدية لراهنية الأفكار.

- كتاب «**قيمة الفكر العملي في البناء الحضاري عند مالك بن نبي**»، للأستاذة ليندة صياد.

يُعدّ هذا الكتاب دراسة تحليلية استكشافية رائدة، تسعى إلى معالجة أزمات المجتمعات العربية والإسلامية، عبر تقديم قراءة تفكيكية لأسباب التخلّف بغية النهوض والتحرّر من التبعية.

وتكمن القيمة العلمية للكتاب في تركيزه على محورين بنيويين:

أولهما: إبراز «الإنسان» كمحور للفاعلية الحضارية، والركيزة الأساسية في بناء الوعي، من خلال تفكيك عناصر المعادلة الحضارية النبوية: (إنسان + تراب + وقت) مع رهن نجاعتها بضرورة الفكرة الدّينية، وتغيير السلوك والبيئة.

وثانيهما: معالجة معضلة «اللافاعلية» السائدة في المجتمعات المسلمة، وتحديد مفهوم المنطق العملي، كأداة للانتقال من المجال النظري المجرد إلى المجال التطبيقي، والممارسة الفعّالة.

ومن الناحية النقدية، يغلب على الكتاب الطابع التنظيري السوسيولوجي العام الذي يدرس المفهوم الحضاري لـ «العمل»، كبنية فكرية مجرّدة، دون الاشتباك الوثيق مع سياق تولّد هذا الفكر العملي من رحم المعاناة، والظروف الوجدانية والسيرذاتية الخاصة بمالك بن نبي نفسه، فضلاً عن حاجته لمناقشة نقدية أعمق تختبر آليات توظيف هذا «المنطق العملي» إجرائياً لمواجهة تحديات صراع الأفكار في واقعنا الراهن، ممّا يجعله دراسة تأصيلية للمفهوم الاجتماعي والحضاري أكثر من كونه قراءة لجدلية الذات والواقع الصانع للمفهوم.

- كتاب «**من التفكير مع مالك بن نبي إلى تقييم مشروعه**» للأستاذ الطاهر سعود.

يُعدّ هذا الكتاب دراسة نقديّة تقييمية رائدة تسعى إلى تجاوز مجرّد القراءات التبسيطية، أو التكرارية السائدة حول فكر «بن نبي»، والانتقال نحو «مرحلة التقييم الحقيقي والمساءلة العلمية» لمشروعه الفكري. وتكمن القيمة المعرفية للكتاب في تركيزه على أبعاد بنيوية جوهرية؛ أبرزها: محاولة اختبار نجاعة فكر «بن نبي» في فضاء «العالم الإسلامي المعاصر» عبر فحص قضايا التغيير، والتخطيط، والتوجيه العلمي، ومدى قدرة العلوم الاجتماعية والإنسانية على استيعاب أطروحاته.

كما يتميّز الكتاب بتقديم مراجعة نقدية عميقة لـ «الصراع الفكري» وتأثيره في توجيه الحركات التغييرية والإصلاحية، مبيّناً مسارات هذه التجربة الوجدانية في التاريخ الجزائري والعربي. ومن الناحية النقدية، يلاحظ أنّ الكتاب يتناول تقييم المشروع الحضاري بنظرة إبستمولوجية عامّة تبحث في مخرجات الأنساق النظرية، ومدى تمثيلها لظواهر العصر، دون الاشتباك التفصيلي المباشر مع «جدلية الواقع الشخصي والسيرذاتي» للمفكّر نفسه، كمنطلق مفسّر لتشكّل خطابه وتوليد مفاهيمه، فضلاً عن تركيزه على رصد الأصوات المتجاوزة للفكر أكثر من بناء آلية إجرائية مدمجة، تربط أزمات «الذات المفكّرة» بنجاعة أدواتها المفاهيمية في فكّ شفرات الواقع الراهن، ممّا يجعله مراجعة لتقييم وتوطين المشروع الحضاري، أكثر من كونه قراءة لجدلية التأثير المتبادل بين الذات الحياتية والواقع المشهود.

1. 5 جديد المقال:

تتمثّل القيمة المضافة وجديد المقال في تقديم قراءة تحليلية شاملة، تربط بين التفاصيل الدقيقة لسيرة مالك بن نبي الذاتية، وبين مخرجات مشروعه الحضاري، حيث ينفرد المقال بتوثيق دقيق لنسبه وجذوره التركية من جهة الأب، استناداً لشهادات عائلية، مع تسليط الضوء على أثر «البيئة المزدوجة» في تبسة وقسنطينة، التي ولّدت لديه توتّراً فكريًّا مبكّراً بين قِيَم المدرسة الفرنسية العلمانية، والبيت الجزائري المحافظ.

كما يبرز المقال مرحلة الحرب العالمية الثانية في فرنسا بوصفها «مختبراً فكرياً» حاسماً، حيث تحوّلت العزلة والاغتراب، وصدمة وفاة والدته عام 1939 إلى قوة دافعة لصياغة مفهوم «القابلية للاستعمار»، وتحليل أزمة الحضارة الغربية.

ويمتدّ التجديد في المقال ليرصد خيبة أمل «بن نبي» بعد الاستقلال، وتصادمه مع الذهنية البيروقراطية، ممّا جعله يخلص إلى أنّ الاستقلال السياسي لا يكتمل إلّا باستقلال ثقافي وحضاري. وبذلك يطرح المقال فكر «بن نبي»؛ ليس كمجرّد نصوص تاريخية، بل كأداة منهجية وظيفية قادرة على تفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية (أشخاص، أفكار، أشياء) وربطها بالتحديات الراهنة للمجتمعات الإسلامية.

2. حياة مالك بن نبي:

2. 1 نَسَبه وحياته:

هو مالك بن الحاج عمر، بن الخضر، بن مصطفى بن نبي، وورد عن إحدى قريباته وهي الحاجّة زينب مصقالجي أنّ مترجمنا هذا هو (ابن الحاج ساعد المدعو عمّار، بن الخير، ابن مصطفى، وابن

الحاجة زهيرة بن عيسى، وجذور والديه من الأمّ والأب من مدينة قسنطينة، أما الجد الأكبر فهو من تركيا، وبالضبط من مدينة إسطنبول)[1]، وذكرت أيضا بأنّ مالكًا كان الذَّكَر الوحيد لوالديه، لأجل ذلك خصّاه بالرعاية المتميّزة، وكانت له شقيقة كبرى هي فاطمة، المدعوّة عتيقة، وهي من مواليد 1902، وأخت أخرى تُدعى سكينة، أقلّ منه سنًّا من مواليد 1906.

عبّر مالك بن نبي عن ولادته في مذكّراته قائلاً: « كان مولدي في الجزائر عام 1905م، أي في زمن كان يمكن فيه الاتّصال بالماضي عن طريق آخرِ مَنْ بقي حيًّا من شهوده، والإطلال على المستقبل عبر الأوائل من روّاده»[2].

وُلد مالك بن نبي في مدينة قسنطينة، في 1 جانفي 1905، في مرحلة تاريخية كانت الجزائر فيها ترزح تحت الاحتلال الفرنسي الذي بدأ سنة 1830. لم تكن قسنطينة مجرّد مدينة تقليدية، بل كانت مركزًا حضاريًّا وعلميًّا بارزًا، اشتهرت بعلمائها ومدارسها وزواياها. لكن بعد قرن من الاحتلال، كانت معالم الانحطاط الاجتماعي والسياسي بادية بوضوح: تراجع التعليم العربي، انهيار البنى التقليدية، واستمرار التمييز الصارخ بين الجزائريين «الأهالي»، والفرنسيين المستوطنين. في هذا السّياق وُلد مالك بن نبي، فحمل منذ طفولته إحساسًا بالظلم الاجتماعي، وشاهد بعينيه كيف كان الجزائريون يعيشون على هامش وطنهم.

انتقل «بن نبي» في طفولته المبكّرة مع أسرته إلى مدينة تبسة، التي ستشكّل البيئة الحاضنة لتربيته الأولى. هناك برزَ دور والدته التي غرست فيه حبّ القرآن منذ نعومة أظفاره، حتّى أنّها باعت بعض حاجياتها الخاصّة، لتضمن له الاستمرار في حفظ كتاب الله. كما كان لجدّته (بايا) من جهة الأمّ أثرٌ خاصّ، إذْ كانت تحكي له قصصًا عن مقاومة الجزائريين للاستعمار، وعن القيم الإسلامية التي حاول الاحتلال محوها. هذه البيئة الدّينية والاجتماعية المحافظة شكّلت ركيزة أساسية في تكوين شخصيته.

أمّا والده؛ فكان موظّفًا بسيطًا في الإدارة الفرنسية، وعلى الرغم من محدودية دخله، فقد حرص على تعليم ابنه، فأرسله إلى المدرسة الفرنسية، باعتبارها السبيل الوحيد للترقّي الاجتماعي في ظلّ الاستعمار. وهكذا نشأ مالك بن نبي في ازدواجية مبكّرة: مدرسة فرنسية تزرع قِيَمًا ماديّة وعلمانية، وبيت جزائري محافظ يتشبّث بالدّين والتقاليد. هذا التناقض بين ما يتلقّاه في البيت وما

(1) طرفاوي، أحمد، مالك بن نبي والغرب الأوروبي، ط1، دار ومضة، جيجل، 2022م: ص13.

(2) بن نبي، مالك، مذكّرات شاهد القرن (الطفولة والشباب)، ط1، الجزائر: دار الفكر بدمشق، بالتعاون مع الملكية للإعلام والنشر والتوزيع، 1984م: ج1، ص15.

يراه في المدرسة؛ سيصبح لاحقًا أحد محرّكات مشروعه الفكري، خاصّة في نقده للثقافة المزدوجة ولإشكالية الهوية في المجتمعات المستعمرة.

في تبسة؛ عايش الطفل مالك أجواء الحرب العالمية الأولى (1914–1918م)، التي تركت أثرًا مباشرًا على المجتمع الجزائري. فقد جُنّد عشرات الآلاف من الجزائريين قسْرًا في صفوف الجيش الفرنسي، بينما عاش الأهالي ظروفًا اقتصاديةً قاسيةً، بسبب استنزاف الموارد. كما شهدت تبسة – باعتبارها مدينة حدودية– بعض التحوّلات الاجتماعية الناتجة عن الاحتكاك بالعالم الخارجي.

كلّ هذه الأحداث صنعت لدى «بن نبي» وعيًا مبكّرًا بأنّ الجزائر ليست معزولة عن حركة التاريخ العالمي، وأنّ مصيرها مرتبطٌ بما يجري في أوروبا والعالم[1].

المرحلة الدراسية في قسنطينة؛ كانت محطّة أخرى مؤثّرة. هناك التحق بمدرسة سيدي الجلي، واطّلع على الصحافة الإصلاحية الناشئة مثل: جريدة المنتقد، والشّهاب، التي كان يصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس. تعرّف كذلك على بعض الأساتذة الجزائريين الذين بثّوا في تلامذتهم روح الوطنية، والاعتزاز بالهوية. وخلال هذه الفترة كوّن صداقات مع شباب جزائريين، سيكون لهم دورٌ لاحقٌ في تكوينه الفكري، مثل: حمّودة بن الساعي.

تزامن ذلك مع ظهور الحركة الإصلاحية بقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (تأسّست 1931 لاحقًا)، ومع بروز أصوات وطنية مثل الأمير خالد. وكان لهذه الحركات أثرٌ مباشرٌ في صياغة وعي مالك بن نبي، حيث بدأ يدرك أنّ معركة الجزائر ضدّ الاستعمار ليست فقط معركة سياسية أو عسكرية، بل هي أيضًا معركة فكرية وثقافية.

إلى جانب ذلك؛ بدأ اهتمامه بالفلسفة والفكر الغربي مبكّرًا، فقرأ بعض الكتب التي كانت متداولة في تلك الفترة، من بينها «رسالة التوحيد» للإمام محمّد عبده، وكتاب «الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق»، وهو ما ساعده على المقارنة بين النموذج الغربي في صعوده الحضاري، وبين وضعية التدهور التي يعيشها المسلمون. مع نهاية عشرينيات القرن العشرين، وجد مالك بن نبي نفسه أمام تحدٍّ شخصي ومجتمعي، فقد أنهى تعليمه الثانوي في الجزائر، لكنّه اصطدم بواقع محدودية الفرص أمام الجزائريين.

الوظائف الكبرى محتكرة من طرف المستوطنين الفرنسيين، بينما الجزائريون كانوا يُدفعون إلى أعمالٍ دُنْيا، هذا الواقع دفعه إلى التفكير في الهجرة إلى فرنسا لمواصلة دراسته. وبالفعل، قرّر سنة 1930 أن يشدّ الرّحال إلى باريس، ليبدأ مرحلة جديدة من حياته ستترك بصمتها على مسيرته الفكرية.

(1) بن نبي، مالك، مذكرات شاهد القرن (الطفولة والشباب): ج1، ص360.

وهكذا يمكن القول: إنّ مرحلة النشأة (1905–1930) كانت مرحلة إعداد وصقل، حيث تداخلت ثلاثة عناصر أساسية:

- البيئة الاستعمارية التي جعلته يعي مبكّرًا مأساة شعبه.
- الأسرة، خاصة الأم والجدة، اللّتين غرستا فيه حبّ الدّين والقرآن.
- التعليم المزدوج (فرنسي/عربي) الذي ولّد داخله توتّرًا سيصبح لاحقًا موضوعًا فكريًا.

2.2 حياة مالك بن نبي، بوصفه طالبا في فرنسا (1930-1939):

مع اندلاع الحرب العالمية الثانية سنة 1939؛ دخل مالك بن نبي مرحلةً جديدةً من حياته، يمكن وصفها بمرحلة النضج المبكّر والتأمّل العميق في مسألة الحضارة. فقد وجد نفسه يعيش أجواء الحرب في فرنسا، حيث أقام منذ بداية الثلاثينيات، ورغم أنه تزوَّج حديثًا، وبدأ يتلمس بعض الاستقرار العاطفي، إلّا أنّ الاضطراب السياسي والاقتصادي، الذي عمّ القارة الأوروبية؛ كان له أثرٌ بالغٌ في مساره الشّخصي والفكري. لقد عاش سنوات الحرب في ظروف صعبة، فالأزمة الاقتصادية كانت خانقة، والتمييز ضدّ الأجانب المسلمين واضحًا، فضلاً عن مشاعر القلق والخوف التي سيطرت على المجتمع الفرنسي بأسره[1].

خلال هذه المرحلة الحاسمة، برزت ملامح المشروع الفكري الذي سيعرف لاحقًا باسم «مشكلات الحضارة»، فبينما انشغل معظم رفاقه من الطلبة الجزائريين والمغربيين بالنقاشات السياسية المباشرة، وبالنشاطات النقابية؛ انصرف «بن نبي» إلى التفكير في الجذور العميقة للأزمة التي تعيشها المجتمعات الإسلامية. كان يسأل نفسه باستمرار: لماذا تخلّف المسلمون عن ركب الحضارة بينما تقدّم غيرهم؟ وقد وجد في أحداث الحرب دليلاً إضافيًّا على أنّ التفوّق المادّي الغربي يخفي أزمة روحية وأخلاقية عميقة، فالحضارة التي أنتجت التقنية الحديثة، والأسلحة الفتّاكة هي نفسها التي دفعت شعوبها إلى حرب عالمية مدمّرة.

لقد استفاد مالك بن نبي من عزلته النّسبية ليضاعف من قراءاته وتأمّلاته. عاد إلى مؤلّفات «شبنغلر» و«توينبي» حول صعود الحضارات وسقوطها، واطّلع على الفلسفات الوجودية والماركسية التي كانت شائعة في الوسط الفكري الأوروبي. غير أنّه لم يذُب في هذه القراءات، بل ظلّ ينظر إليها بعين نقدية، محاولاً أن يستخلص منها منهجًا لتحليل واقع المجتمعات الإسلامية. لقد أدرك أنّ الاستعمار ليس مجرّد قوّة خارجية غاشمة، بل هو أيضًا نتيجة قابلية داخلية لدى الشعوب المستعمَرة، وهي الفكرة التي ستصبح فيما بعد من أبرز أطروحاته النظرية.

(1) بن نبي، مالك، العفن، ط2، الجزائر: وزارة الثقافة والفنون، 2017 م: ص19.

في هذه السنوات؛ بدأت تتّضح عنده بعض المفاهيم المركزية التي سترافقه طيلة حياته، فقد توصّل إلى أنّ مشكلتنا الأساسية ليست سياسية فحسب، بل حضارية بالأساس، وأنّ الإصلاح الحقيقي يقتضي إعادة بناء الفرد والمجتمع على أسس جديدة. كما بدأ يتحدّث عن أهمية الفكرة الدّينية في انبعاث الحضارات، مستندًا في ذلك إلى قراءة معمّقة للتجربة الإسلامية الأولى، وللتاريخ الأوروبي الحديث. وفي ظلّ أجواء الحرب، ازداد اقتناعه بأنّ الحضارة الغربية رغم قوتها التقنية محكومة بالانحدار، ما دامت قد فقدت بُعْدها الروحي.

تزامن هذا التحوّل الفكري مع تطوّرات مؤلمة في حياته الشخصية، فوفاة والدته عام 1939م كانت صدمة قاسية هزّت وجدانه[1]، وقد سجّل في مذكّراته لاحقًا أنّ هذه الحادثة جعلته يشعر بفراغ عاطفي وروحي كبير، وأنّه لم يعد يجد في محيطه الأسري الدفء الذي كان يحميه في سنوات الطفولة والشباب. كما أنّ زواجه من خديجة؛ رغم ما وفّره له من استقرار نسبي، لم يخفّف من وطأة العزلة الفكرية التي عاشها، إذ كان يجد نفسه غريبًا عن الأوساط الطلابية والسّياسية التي فضّلت الانخراط في صراع يومي ضدّ الاستعمار دون التعمّق في الأسئلة الحضارية الكبرى.

لكنّ هذه العزلة لم تكن سلبيةً بالمطلق، فقد دفعت به إلى تكثيف الكتابة والتأمّل. كتب خلال هذه الفترة العديد من المقالات والخواطر التي لم تُنشر، لكنّها كانت نواة لكتبه اللّاحقة. ومن بين أبرز ما بلوره في هذه المرحلة الفكرة القائلة: «إنّ النهضة لا تبدأ من السّياسة، بل من الثقافة والفكر»، وإنّ أيّ مشروعٍ تحرّريّ لن ينجح ما لم يغيّر الإنسان المسلم نفسه من الداخل. لقد بدأ يرسم معالم مشروعٍ فكريٍّ يربط بين الدّين والعلم، وبين الأصالة والمعاصرة، في محاولة لصياغة نموذجٍ حضاريٍّ جديدٍ يتجاوز التقليد الأعمى للغرب، ويبتعد في الوقت نفسه عن الجمود الذي كبّل المجتمعات الإسلامية.

لا يمكن فهم تجربة مالك بن نبي في سنوات الحرب العالمية الثانية، بمعزل عن السياق التاريخي العام. فالجزائر نفسها كانت تعيش أحداثًا دامية، إذ شارك آلاف من أبنائها في القتال إلى جانب الجيش الفرنسي، فيما كانت الجبهة الداخلية تغلي بالاحتقان، وبعد نهاية الحرب مباشرة، ستندلع أحداث الثامن من ماي 1945 التي ستكشف للعالم الوجه القمعي للاستعمار الفرنسي. كان «بن نبي» يتابع هذه التطورات من موقعه في فرنسا، ويتألّم لما يتعرّض له شعبه من مذابح وتهميش، لكنّه كان يعتقد أنّ المواجهة المسلّحة وحدها لا تكفي، وأنّ الأمّة بحاجة إلى ثورة فكرية وأخلاقية عميقة، حتّى تحقّق استقلالها الحقيقي.

(1) بن نبي، العفن: ص74.

وهكذا يمكن القول: إنّ المرحلة الممتدّة من 1939 إلى 1945م، شكّلت بالنسبة لمالك بن نبي مختبرًا فكريًّا حاسمًا. فقد عاش تجربة الاغتراب بكلّ آلامها، وتأمّل في أزمة الحضارة الغربية، وبدأ يضع اللّبنات الأولى لمشروعه الفكري حول مشكلات الحضارة. ومع نهاية الحرب، كان مستعدًّا للشروع في كتابة أوّل مؤلفاته الكبرى، مثل: «الظاهرة القرآنية» و«شروط النهضة»، التي ستضعه في مصافّ أبرز المفكّرين المسلمين في القرن العشرين.

3. المرتكزات الفلسفية والبنية المفاهيمية في مشروع بن نبي الحضاري:

1.3 رحلة مالك بن نبي الفكرية:

ارتبط فكر مالك بن نبي بعمق؛ بالظروف التاريخية التي عاشها العالم الإسلامي في النصف الأول من القرن العشرين، حيث تزامنت حياته مع الاحتلال الفرنسي للجزائر، وبروز التحديات الكبرى أمام المجتمعات المستعمَرة، إلى جانب التحوّلات العالمية الكبرى، كالحربين العالميتين الأولى والثانية، وصعود التيارات الفكرية الحديثة، من ليبرالية، وشيوعية، ورأسمالية.

هذه الظروف جعلت مشروعه الفكري يتجاوز حدود الجزائر؛ ليصبح محاولةً لصياغة نظرية شاملة في الحضارة، قادرةً على تشخيص أزمات المسلمين، وإبراز سبل الخروج منها.

لقد كان مالك بن نبي يرى أنّ القضية الأساسية التي تواجه المسلمين ليست قضيةً سياسيةً محضة، بل هي قبل ذلك قضية حضارية، فغياب شروط النهضة هو الذي جعل الأمة الإسلامية قابلة للاستعمار، وعاجزة عن استعادة مكانتها بين الأمم. ولهذا صاغ مفهوم «القابلية للاستعمار» الذي أثار جدلاً واسعًا، حيث يرى «بن نبي» أنّ الاستعمار ليس مجرّد عامل خارجي، بل هو نتاج لظروف داخلية، جعلت المجتمع قابلاً للاستعمار.

فالمجتمعات التي تفقد فاعليتها الحضارية، وتدخل مرحلة الانحطاط، تُصاب بحالة من الضعف النفسي والاجتماعي تجذب المستعمر إليها. وبناءً عليه، فإنّ التحرّر الحقيقي لا يتأتّى بجلاء القوات الأجنبية فحسب، بل يجب أن يسبقه تحرّر الذّات من قابليتها للخضوع، وإعادة بناء الإنسان الذي يرفض الاستعمار بفعاليته لا بشعاراته[1]، لهذا حمّل فيه المسلمين جزءًا من مسؤولية تخلّفهم، مؤكّدًا أنّ الاستعمار لم يكن ليستمرّ لولا وجود تربة خصبة في داخل المجتمعات الإسلامية تسمح له بالهيمنة.

بهذا الطّرح؛ حاول أن يحوّل النقاش من خطاب المظلومية إلى خطاب النهضة، ومن تبرير العجز إلى تحمّل المسؤولية التاريخية، ومن خلال كتبه المختلفة، سعى إلى بناء نظرية حضارية تنطلق من

(1) Jamsari, Ezad Azraai, et al. "Malek Bennabi and the Development of Human Civilization", p. 1747

عناصر محدّدة: الإنسان، التراب، والوقت. إنّ هذه العناصر لا تمثّل مجرّد موارد، بل هي تحديد هيكلي لمكوّنات الحضارة في فكر بن نبي. فمن خلال معادلة (إنسان + تراب + وقت)، استطاع بن نبي تفكيك مشكلة الحضارة بنيوياً إلى هذه الفئات الثلاث التي يمثّل كلّ منها ركيزة للفعل التاريخي[1]، وهي الركائز التي تقوم عليها أيّ حضارة.

غير أنّ اجتماعها وحده لا يكفي، بل لا بدّ من «الفكرة الدافعة» الّتي توحّد الأفراد، وتمنحهم معنى لحياتهم، ومغزى لعملهم. فإذا غابت هذه الفكرة؛ تحوّل المجتمع إلى مجرّد تجمّع بشري تسيطر عليه الأشياء، وتغيب عنه الفاعلية التاريخية. وقد أعطى مثالًا على ذلك بالمجتمعات الاستهلاكية التي تستورد منتجات الحضارة، دون أن تملك روحها، أو قدرتها على الإبداع.

في كتابه «شروط النهضة»؛ وضع التصوّر العامّ للخروج من حالة التخلّف، مؤكّدًا أنّ النهضة ليست حدثًا عابرًا، ولا شعارًا سياسيًا، بل هي عملية تاريخية تتطلّب إعادة بناء الإنسان أولًا، قبل إعادة بناء المؤسّسات. فالنّهضة تبدأ من الفرد الذي يستعيد وعيه برسالته، ويُنشَّأ على ثقافة جديدة، تربطه بالواقع، وتجعله قادرًا على التغيير. ومن هنا اعتبر أنّ التربية والتعليم هما الأساس لأيّ تحوّل حضاري، لكن بشرط أن يكون التعليم مرتبطًا بالحياة العملية وبالفاعلية الاجتماعية، لا مجرد تكديس للمعارف النظرية.

أمّا في «مشكلة الثقافة»، فقد قدّم تحليلاً عميقًا لدور الثقافة في تشكيل المجتمع، فهو لا ينظر إلى الثقافة كمجرّد ترف فكري أو زخرفة معرفية، بل كمنظومة قيم وسلوكيات تحدّد طريقة تفكير الإنسان ونظرته إلى العالم. فإذا كانت الثقافة صالحة؛ أنتجت أفرادًا فاعلين قادرين على البناء والإبداع، أمّا إذا كانت فاسدة أو مشوّهة؛ فإنّها تنتج أفرادًا سلبيين يرسّخون التخلّف. وقد حذّر من «اللاثقافة»، أي: من انهيار الإطار الثقافي الذي يجمع المجتمع، وهو ما يؤدّي إلى تفكّك العلاقات الاجتماعية، وإلى أزمة حضارية شاملة.

وفي «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي»، ركّز على مركزية الفكرة في بناء الحضارة، فالأفكار في نظره هي الطاقة المحرّكة للتاريخ، وهي التي تحدّد مسار المجتمعات. ميّز هنا بين «الأفكار الميتة» التي فقدت فعّاليتها، لكنّها ما زالت تهيمن على العقول، وبين «الأفكار القاتلة» التي تُدمّر المجتمعات إذا انتشرت فيها، كالأفكار المستوردة التي لا تراعي الخصوصية الاجتماعية والثقافية. وفي المقابل دعا إلى تبنّي «الأفكار الحيّة» القادرة على إحياء الوعي الجماعي، وبناء مشروع نهضة أصيل يتناسب مع حاجات العصر دون أن يتنكّر للتراث.

(1) Benlahcene, Badrane. The Socio-Intellectual Foundations of Malek Bennabi's Approach to Civilization, p.8

إنّ تطبيق منهج «بن نبي» يتطلّب وعياً بالخصوصية، فالحضارة عنده ليست قالباً جاهزاً يُطبّق في كلّ مكان بنفس الطريقة. وكما يؤكّد (Subhani et al., 2020)، فإنّ «بن نبي» يقرّ بتعدّد النماذج الحضارية داخل المجتمع المسلم الواحد، بناءً على اختلاف معطيات التراب والإنسان والوقت، وهذا يدعم فكرة أنّ إصلاح الواقع يبدأ من فهم الذات في سياقها المحلّي الخاص[1].

وفي كتاب «ميلاد مجتمع»، صاغ رؤيته للعلاقات التي تشكّل البنية الاجتماعية، معتبرًا أنّ المجتمع يقوم على ثلاثة عناصر رئيسية: الأشخاص، الأفكار، والأشياء. هذه العناصر لا تعمل منفصلة، بل في شبكة من التفاعلات التي تحدّد حركية المجتمع. فإذا هيمنت الأشياء على الأفكار؛ أصبح المجتمع استهلاكيًّا فاقدًا للرّوح، وإذا غابت الأفكار فقد الأشخاص مشروعهم، وتحوّلوا إلى ذوات متفرّقة بلا رابط، لهذا شدّد على ضرورة وجود فكرة محورية تنسّق بين هذه العناصر، وتمنحها الاتجاه الصّحيح.

غير أنّ فكر مالك بن نبي؛ لم يقتصر على التنظير المجرّد، بل كان مرتبطًا بالتحوّلات السياسية التي عاشها عصره. فقد تابع عن قرب صعود النازية والفاشية، كما عاش آثار الحرب العالمية الثانية، ولاحظ كيف استطاع اليهود أن يحوّلوا الشّتات إلى قوّة فاعلة في أوروبا والعالم.

في كتابه «وجهة العالم الإسلامي: المسألة اليهودية»؛ حلّل بعمق الدور الذي لعبه اليهود في الحضارة الغربية، مبيّنًا كيف استطاعوا أن يندمجوا في المجتمعات الأوروبية، ويؤثّروا فيها في مختلف المجالات الفكرية والاقتصادية والسياسية. لكنّه لم يكتف بالتحليل التاريخي، بل ربط ذلك بالقضية الفلسطينية، معتبراً أنّ مستقبل العالم الإسلامي لا يمكن أن ينفصل عن هذا التحدي التاريخي.

لقد أدرك «بن نبي» أنّ العالم بعد الحرب العالمية الثانية؛ دخل مرحلة جديدة تميّزت بالقطبية الثنائية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وفي ظلّ هذه الظروف دعا إلى سياسة الحياد الإيجابي، معتبرًا أنّ على العالم الإسلامي أن ينأى بنفسه عن الصّراع بين الرأسمالية والشيوعية، وأن يبني مشروعه الخاصّ المستند إلى قيمه الدّينية وأصالته الحضارية.

كان يرى أنّ الإسلام يمتلك نزعة تخطيطية قادرة على تصحيح انحرافات الماركسية والرأسمالية معًا، وأنّه المؤهّل ليقدّم للبشرية بديلاً حضاريًا يتجاوز أزماتها. ولم يغفل «بن نبي» عن الدّور التعليمي والثقافي في بناء النهضة. فقد اعتبر أنّ المدرسة ليست مجرّد مؤسّسة لتلقين المعارف، بل هي وسيلة لتكوين الإنسان الجديد الذي يحمل رسالة النّهضة. من هنا جاءت انتقاداته الحادّة للأنظمة

(1) Zulqernain Haider Subhani, et al., "Bennabi's Thoughts on Civilization," Journal of Al-Tamaddun, Vol. 15, No. 1, 2020, p. 177.

التعليمية التي تخرّج أجيالًا متعلّمة شكليًا، لكنها عاجزة عن التغيير، لأنّها منفصلة عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي. وقد دعا إلى إعادة النظر في المناهج التربوية بحيث تدمج بين الثقافة والعلم والعمل، فتنتج أفرادًا مثقّفين وفاعلين لا مجرّد حاملي شهادات[1].

وفي رؤيته للثقافة؛ كان «بن نبي» يربط دائمًا بين المحلّي والعالمي، فهو يدعو إلى ثقافة أصيلة نابعة من بيئة المجتمع، وليست مستعارة بشكل أعمى من الغرب، فالأفكار المستعارة قد تبدو لامعة، لكنها تفشل إذا لم تنسجم مع التربة الاجتماعية والثقافية المحلّية[2].

لذلك شدّد على ضرورة نقد العادات والتقاليد التي تحولّت إلى قيود على الفكر، وفي الوقت نفسه دعا إلى التفاعل الإيجابي مع منجزات الحضارة الغربية، لا برفضها كلّيًا، ولا باستيرادها دون وعي، بل بتمثّلها وإعادة توظيفها في إطار مشروع حضاري إسلامي. لقد تميّزت مساهمته الفكرية بأنّها لم تكن انعزالًا عن التاريخ، بل تفاعلًا معه. ففي كلّ مرحلة من حياته، كان يعيد قراءة الواقع بعيون المفكّر، فينتج كتابًا أو نظرية تحاول أن تجيب على الأسئلة المطروحة آنذاك. ومن هنا جاء اتساع مؤلّفاته وتنوّعها، من «شروط النهضة» و«مشكلة الثقافة» و«ميلاد مجتمع»، إلى «الظاهرة القرآنية» و«من أجل التغيير» و«في مهبّ المعركة»؛ كلّ هذه المؤلّفات تشكّل أجزاء من مشروعٍ واحدٍ هو مشروع النهضة الإسلامية.

إنّ قراءة فكر مالك بن نبي في سياقه التاريخي تكشف لنا عن مفكّر أدرك بعمق أنّ معركة المسلمين ليست عسكرية فقط، بل فكرية وثقافية قبل كلّ شيء. لقد حاول أن يضع أسس علم جديد للحضارة، يحدّد شروط النهوض، ويكشف عوائق التقدّم. ورغم مرور عقود على وفاته، فإنّ أسئلته ما زالت حاضرة في النقاشات الفكرية والسياسية المعاصرة، ممّا يدلّ على حيوية مشروعه وقدرته على الاستمرار. ففكره لم يكن مجرّد نتاج لحظة تاريخية معيّنة، بل محاولة جادة لصياغة رؤية شاملة لمسار الأمة ومكانها في العالم الحديث.

حينما استقر مالك بن نبي في فرنسا لمتابعة دراسته في الهندسة، عاش عن قرب التجربة الأوروبية الحديثة[3]؛ هناك لمس بنفسه كيف تتشكّل الحضارة الغربية من خلال منظومة متكاملة من العلم والتكنولوجيا والنظام الاجتماعي، لكنّه في الوقت ذاته، لم يكن مبهورًا بها انبهارًا أعمى، بل كان ناقدًا حادًّا لما رآه من نزعة مادية مفرطة، تنزع المعنى من حياة الإنسان. هذه التجربة جعلته يقتنع

(1) بن نبي، مالك، مشكلة الثقافة، ط2، وزارة الثقافة والفنون، الجزائر، 2017: ص77.

(2) المرجع نفسه: ص43.

(3) بن نبي، العفن: ص41.

أكثر بضرورة صياغة مشروع حضاري إسلامي، قادر على أن يأخذ من الغرب أدواته العلمية، لكن دون أن يفقد مرجعيته الروحية والأخلاقية.

ومن هنا وُلدت بدايات كتاباته المبكّرة مثل «الظاهرة القرآنية»، الذي أراد به إثبات أنّ القرآن ليس مجرّد نصّ تعبّدي، بل هو ظاهرة تاريخية كبرى؛ أعادت تشكيل الوعي الإنساني. وعندما عاد إلى الجزائر في الأربعينيات؛ وجد نفسه في مواجهة واقع استعماري قاسٍ، حيث كان الشعب الجزائري يعاني من التهميش الثقافي والسياسي.

اشتغل لفترة في التعليم والإدارة، لكنّه سرعان ما اكتشف أنّ العمل في إطار النظام الاستعماري لا يتيح المجال لتغيير حقيقي. هنا بدأت ملامح مفهومه حول «القابلية للاستعمار» تتبلور، فقد رأى أنّ الاستعمار لا يفرض نفسه بقوّة السّلاح فقط، بل يجد دائمًا أرضًا اجتماعية وثقافية تساعده على البقاء.

لا تتوقّف خطورة «القابلية للاستعمار» عند اللحظة التاريخية لوجود المستعمر، بل تمتدّ لتشكّل واقعاً معاصراً يتجلّى في التبعية الاقتصادية وفقدان الهوية. وفي هذا السياق، تؤكّد الدراسات الحديثة (Jaafri, 2023) أنّ العديد من المجتمعات الإسلامية التي نالت استقلالها الرسمي؛ لا تزال تعيش حالةً من الاستعمار غير المرئي، حيث تفتقر السيادة الفعلية على مواردها وقراراتها السياسية نتيجة استمرار العوامل الداخلية التي تجعلها عرضة للهيمنة الخارجية[1]. هذه الفكرة لم تكن مجرّد تنظير، بل كانت حصيلة تجربة مباشرة عاشها بين أبناء وطنه.

في الخمسينيات؛ سافر إلى القاهرة، وهناك التقى نخبةً من المفكّرين وقادة الحركات الإسلامية والقومية، مثل الإخوان المسلمين، ورجال الفكر العرب الذين كانوا يطرحون مشاريع نهضوية مختلفة. تجربة مصر كانت غنية بالنسبة له، إذ جعلته يواجه أسئلة جديدة تتعلّق بعلاقة الفكر الإسلامي بالحركات السياسية، وبكيفية التوفيق بين الأصالة والتجديد. ومع ذلك، احتفظ دائمًا بمسافة نقدية تجاه جميع التيارات، رافضًا أن ينخرط في صراعاتها الضيقة، ومصرًّا على أنّ النهضة الحقيقية لا تُختزل في خطاب سياسي، بل تبدأ من بناء الإنسان والثقافة.

كما عاش لفترة في دمشق، حيث ألقى محاضرات وشارك في ندوات، ووجد بيئة فكرية أكثر انفتاحًا للنقاش. هناك صاغ كثيرًا من أفكاره التي جمعها لاحقًا في كتاب «شروط النهضة». ومن خلال احتكاكه بالطلبة والمثقفين العرب؛ أدرك حجم التحدي الذي يواجه العالم الإسلامي، وهو التحدي

(1) Ahmed Jaafri, "The Colonizability of African and Asian Societies," Psychology and Education, Vol. 60, No. 2, 2023, p. 1837.

المزدوج بين هيمنة الاستعمار الخارجي وضياع البوصلة الداخلية. هذه الازدواجية أكدت له أنّ أيّ مشروع حضاري لا بدّ أن يواجه المسألتين معًا، وأنّ التحرّر السياسي وحده لن يصنع حضارة.

وبعد الاستقلال الجزائري سنة 1962؛ عاد إلى بلده آملاً أن يُسهم في بناء الدولة الجديدة، غير أنّ التجربة كانت مخيّبة لآماله[1]، فقد اصطدم بعقليات بيروقراطية عاجزة عن استيعاب مشروعه الفكري. ورغم أنه كُلّف بمهام في التعليم العالي، إلّا أنّ خلافاته مع المسؤولين جعلته يستقيل سنة 1968م، ليتفرّغ كلّيًا للبحث والتأليف. هذه التجربة تركت أثرًا عميقًا في نفسه، إذ رأى أنّ الاستقلال السياسي لا يكتمل إذا لم يتبعه استقلال ثقافي وحضاري. ومن هنا جاءت كتاباته في أواخر حياته أكثر نقدًا للواقع، وأكثر إلحاحًا على ضرورة التغيير العميق.

ومن اللّافت أنّ «بن نبي» لم يكن يكتب في فراغ، بل كان يتابع عن كثب تطوّرات القضايا الدولية، فقد عاش صعود الثورة الجزائرية وكتب عنها، وعايش النكبة الفلسطينية وتحدّث عن أبعادها، وراقب كيف تحوّل العالم إلى ساحة صراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. في كلّ هذه الأحداث؛ لم يكن موقفه انفعاليًا أو شعاراتيًا، بل تحليليًا، يسعى لاستخلاص الدروس الحضارية. كان يعتبر أنّ الصّراع بين الشرق والغرب، أو بين الرأسمالية والشيوعية، مجرد أعراض لأزمة حضارية أعمق تعيشها البشرية. وكان يعتقد أن العالم الإسلامي إذا نهض، فإنّه قادر على أن يقدّم للبشرية مشروعًا بديلاً يقوم على التوازن بين الروح والمادة.

كلّ هذه التجارب الواقعية (من دراسته في فرنسا، إلى نشاطه الفكري في مصر ودمشق[2]، ثمّ عودته إلى الجزائر بعد الاستقلال)؛ شكّلت مختبرًا حيًّا لأفكاره. لقد كان فكره انعكاسًا لمعاناته الشخصية وصراعه مع بيئته، أكثر ممّا كان مجرّد تنظير فلسفي. لذلك نلاحظ أنّ كتاباته ليست جافة أو أكاديمية بالمعنى التقليدي، بل هي مشبعة بروح الإصلاح والبحث عن حلول عملية.

إنّ محاولة فهم فكر مالك بن نبي ليست مجرّد قراءة في نصوص فلسفية أو تنظيرية، بل هي في حقيقتها قراءة في تاريخ الجزائر والعالم الإسلامي، في مرحلة حرجة من تاريخهما. فقد عاصر الرجل مرحلة الاستعمار الفرنسي، بكلّ ما حملته من قهر سياسي، وتفكيك اجتماعي، ومسخ ثقافي، وشهد عن قرب كيف أنّ الاحتلال لم يكن ليترسّخ لولا وجود استعداد داخلي أسماه بـ«القابلية للاستعمار».

هذه الفكرة لم تأتِ من فراغ، بل كانت حصيلة معايشة طويلة لمجتمع مشلول الإرادة، يعيش على الهامش، ويستهلك منتجات غيره دون أن يشارك في صناعة حضارته. وهكذا تحوّل فكر «بن نبي» إلى نوع من المقاومة الفكرية، يعادل في قوته البندقية التي حملها المقاومون في الجبال، لأنه كان يواجه

(1) بن نبي، مالك، التأملات، ط5، الجزائر: دار الفكر، دمشق، بالتعاون مع الملكية للإعلام والنشر والتوزيع: ص156.

(2) طرفاوي، مالك بن نبي والغربي الأوروبي: ص35.

العدو الأخطر: الهزيمة الداخلية في النفوس. إنّ ما يميّز فكر مالك بن نبي هو أنه لم يطرح مشكلة النهضة من زاوية سياسية بحتة، كما فعلت كثير من الحركات الإصلاحية في عصره، بل اعتبر أنّ النّهضة عملية شاملة، لا يمكن أن تتحقّق إلّا إذا تغيّر الإنسان ذاته. ولذلك جعل من الإنسان، والأرض، والوقت، عناصره الأساسية في تفسير دورة الحضارة.

وإذا كان الاحتلال قد صادر الأرض، والوقت قد ضاع في التبعية والتخلّف، فإنّ الإنسان ظلّ هو العنصر الحاسم الذي يمكن أن يُعيد التوازن، ويطلق شرارة البناء من جديد. لقد آمن «بن نبي» أنّ كلّ أمّة تبدأ نهضتها عندما تجد الفكرة التي تمنح وجودها معنى ورسالة، وأنّ الحضارات الكبرى عبر التاريخ لم تقم إلّا حينما امتلكت الفكرة الدافعة التي وجهت سلوك الأفراد والجماعات نحو غاية مشتركة.

إنّ أساس الأزمة الحضارية في المجتمعات الإسلامية لا يعود إلى طبيعة المشكلات في حدّ ذاتها، بقدر ما يعود إلى الجانب الفكري للإنسان المسلم، وتحديداً في 'موقفه' من هذه المشكلات. هذا الموقف يجب أن يتّسم بـ«الفاعلية الاجتماعية» التي تتماشى مع سنن التغيير الكونية. ويستدلّ «بن نبي» هنا بالآية الكريمة: **(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)**؛ فالتغيير النفسي والفكري هو الشرط المسبق لتغيير الواقع الخارجي[1].

وإذا ما تأمّلنا كتبه نجد أنّها لم تكن مجرّد تنظير أكاديمي معزول عن الواقع، بل كانت استجابة مباشرة لأسئلة عصره. فكتابه «شروط النهضة» كُتب في لحظة كان فيها العالم الإسلامي يترنّح بين الاستعمار المباشر والبحث عن الهوية المفقودة، فجاء ليؤكّد أنّ النهضة ليست هبة تُعطى من الخارج، بل ثمرة لوعي داخلي، ومراجعة جذرية للذات.

أمّا كتابه «مشكلة الثقافة»؛ فقد حاول من خلاله أن يعالج العطب العميق في البنية الاجتماعية الإسلامية، حيث لاحظ أنّ الاستقلال السياسي لا معنى له إذا لم يُبنَ على ثقافة صحيحة، توجّه المجتمع، وتوحّد أفراده حول قيم مشتركة.

وفي كتابه «فكرة كومنولث إسلامي»؛ طرح رؤية إستراتيجية تتجاوز حدود الوطن الضيق، نحو أفق أوسع، يربط الشعوب الإسلامية في إطار حضاري مشترك، إدراكًا منه أنّ النهضة لا يمكن أن تكون مشروعًا محلّيًا فقط، بل لا بدّ أن تكون مشروعًا عالميًا ذا أفق إنساني.

(1) Hanane Bougherrafe, "The Importance of Thoughts in Malek Bennabi's Civilizational Construction Process," ELWAHAT Journal For Research And Studies 16, no. 2 (2023): p. 343

إنّ هذه الرؤية التاريخية الشاملة، تجعل من مالك بن نبي واحدًا من أبرز مفكّري القرن العشرين في العالم الإسلامي. فهو لم يكتفِ بتشخيص المرض، بل حاول أن يضع وصفة للعلاج، قائمة على التربية والتعليم والثقافة والعمل المنتج، لا على الخطابات السياسية الجوفاء. وهو في ذلك يلتقي مع كثير من المفكّرين الإصلاحيين، لكنّه يتميّز عنهم بقدرته على الربط بين النظرية والتاريخ، وبين الفلسفة والواقع الملموس. فقد كان يرى أنّ الأمم التي تستعير أفكارها من غيرها، دون أن تراعي خصوصيتها، محكوم عليها بالفشل، لأنّ الحضارة لا تُستورد، بل تُبنى من الداخل عبر جهد جماعي متكامل.

إنّ القيمة الكبرى لفكر مالك بن نبي اليوم؛ تكمن في أنّه ما يزال صالحًا لإثارة النقاشات حول قضايا النهضة والتخلّف. فما تحدّث عنه من «أزمة أفكار»، و«قابلية للاستعمار»، و«الأفكار الميّتة والقاتلة»؛ ما زال يصف حال كثير من المجتمعات الإسلامية المعاصرة، التي لم تتمكّن بعد من تجاوز أمراضها التاريخية. وما دعا إليه من إصلاح ثقافي وتربوي شامل؛ هو ما نحتاجه اليوم أكثر من أيّ وقت مضى؛ لأنّ التحدّيات لم تعد استعمارية بالمعنى التقليدي، بل أصبحت ثقافية وحضارية في عصر العولمة.

إنّ فكر مالك بن نبي، إذن، ليس مجرّد تراث فكري نقرأه للتاريخ، بل هو مشروع حيّ يمكن أن يلهم الأجيال الجديدة. وإذا كان القرن العشرون قد شهد ميلاده ونضجه، فإنّ القرن الحادي والعشرون هو المجال الأرحب لتفعيل أفكاره، وتجديد قراءتها في ضوء التحديات الراهنة. وربّما تكون أعظم خدمة يمكن أن نقدّمها لتراثه؛ هي أن نتعامل معه لا بوصفه نصوصًا مقدّسة، بل بوصفه دعوة مفتوحة للتفكير والنقد والبناء. عندها فقط نستطيع أن نعيد طرح السؤال الذي شغل مالك بن نبي طوال حياته: كيف يمكن لمجتمع متخلّف أن يدخل من جديد دورة الحضارة؟

2.3 سياقات التشكل ومسارات التجربة الواقعية (من التنظير إلى التطبيق):

مع مطلع ستينيات القرن الماضي دخل مالك بن نبي مرحلة جديدة من حياته، حملت معها تحوّلات حاسمة على الصعيد الشخصي والفكري. ففي سنة 1960 انتقل إلى العاصمة الليبية «طرابلس» حيث عقد قرانه على السيدة الجزائرية «خديجة حوّاس»، وفي تلك الفترة أصدر أوّل مؤلّفاته باللّغة العربية وهو كتابه «الصراع الفكري» الذي شكّل محطّة بارزة في مشروعه الفكري، إذْ أراد من خلاله أن يضع تشخيصًا لمظاهر الصّراع الإيديولوجي الذي تعيشه الشعوب المستعمَرة[1].

(1) طرفاوي، مالك بن نبي والغرب الأوروبي: ص45.

وفي السنة التالية عاد إلى القاهرة رفقة زوجته الجديدة، ومنها توجّه إلى مكّة المكرّمة لأداء مناسك الحج، قبل أن يُصدر في العام 1962 كتاب «ميلاد مجتمع» الذي حاول فيه أن يبلور رؤيته حول العوامل المؤسّسة للنّهضة، إضافة إلى نصّه: «من أجل مليون شهيد» الذي يعكس ارتباطه العميق بالقضية الجزائرية[1].

ومع استرجاع الجزائر استقلالها سنة 1962؛ عاد «بن نبي» إلى أرض الوطن، وقد رافقه طموح كبير في أن يساهم في بناء الدولة الحديثة وتوجيه مشروعها الثقافي والفكري. فبعد لقائه بالرئيس أحمد بن بلة سنة 1963؛ عرض عليه فكرة إنشاء مركز للتوجيه الثقافي، يكون بمثابة مختبر لدراسة حاجات المجتمع الجديد، الأمر الذي جعل الرئيس يضع تحت تصرّفه مقرًّا لهذا المشروع[2].

وسرعان ما كُلّف سنة 1964 بإدارة التعليم العالي، وهو المنصب الذي رآه فرصة مناسبة لغرس أفكاره في النّخبة الناشئة، غير أنّ هذا الطموح اصطدم بالواقع السياسي والإيديولوجي السائد آنذاك، حيث وجد نفسه مهمَّشًا ومعزولًا عن دوائر القرار، وهو ما دفعه إلى التعبير عن خيبة أمله في كتابه: «آفاق جزائرية»[3].

لم يلبث أن أُعفي من منصبه سنة 1966، وهو ما عمّق إحساسه بالعزلة. ومع ذلك واصل نشاطه الفكري والثقافي، فأصدر الجزء الثاني من «مذكّرات شاهد القرن» سنة 1967، وتنقّل في عدّة بلدان لإلقاء المحاضرات من الاتحاد السوفياتي، إلى ألمانيا، وبريطانيا، كما شارك في الملتقيات الفكرية بالجزائر والعالم العربي. وكان من أبرز محطّاته تنظيم ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر سنة 1968، وهو حدثٌ سيستمرّ في العقود اللاحقة كمحفل رئيسي للحوار الفكري والثقافي في العالم الإسلامي.

خلال السنوات الأخيرة من حياته اتسع نشاطه أكثر، فشارك في مؤتمرات فكرية ودينية في السودان، وليبيا، والقاهرة، ودمشق، وبيروت، كما ألقى العديد من المحاضرات في الجزائر. وقد أثمرت هذه الجهود عن صدور كتاب «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي» سنة 1970، الذي عدّه بعض الدارسين خلاصة فكره، حيث قدّم فيه تشريحًا عميقًا لمعضلة تعطّل الفاعلية الفكرية في المجتمعات الإسلامية(4).

وفي مطلع السبعينيات واصل التأليف، فأصدر كتاب «المسلم في عالم الاقتصاد» سنة 1972م، إضافة إلى مساهمته في محافل دولية مثل المؤتمر العالمي للمسيحيين من أجل فلسطين.

---

(1) المرجع نفسه: ص45.

(2) المرجع نفسه: ص46.

(3) المرجع نفسه: ص46.

(4) المرجع نفسه: ص48.

غير أنّ وضعه الصحّي بدأ يتدهور تدريجيًّا مع اقتراب منتصف السبعينيات، وقد عبّر في مذكراته عن إحساسه بدنوّ أجله، خاصّة وأنّه كان قد فقد زوجته الأولى في ماي 1973، وهو ما زاد من أعبائه النفسية. ورغم حالته الصحيّة أصرّ على مواصلة نشاطه، فألقى محاضرات في وهران وباتنة حول الأيديولوجيا، قبل أن يشتدّ عليه المرض، ويفارق الحياة يوم 31 أكتوبر 1973، عن عُمْر ناهز التاسعة والستين.

لقد كانت هذه المرحلة الأخيرة من حياته غنية بالدروس، إذ جمعت بين الطموح إلى التغيير، والصدام مع الواقع السياسي، والاستمرار في الإنتاج الفكري، رغم الإقصاء والتهميش، ممّا يجعلها جزءًا أساسيًا لفهم فكر مالك بن نبي، وموقعه في التاريخ الثقافي للجزائر والعالم الإسلامي.

جدول تحليلي: جدلية الحدث والسياق الذاتي في توليد المفاهيم الحضارية عند مالك بن نبي (نموذج كتاب الصراع الفكري):

السنة والحدث الواقعي	سياق الحدث وتجربة المفكر الشخصية وملاحظاته	توليد الفكرة واختراع المفهوم الحضاري	الآلية الإجرائية والنجاعة في الواقع المعاصر
1936انعقاد "المؤتمر الإسلامي الجزائري" ومحاولات نيل الحقوق السياسية.	عايش بن نبي انحراف النخبة الجزائرية المثقفة والسياسيين، واندفاعهم وراء الوعود الفرنسية ومقاعد البرلمان، وتشتت الجهد الشعبي في خطابات جوفاء، مما أدى لإجهاض الحركة الإصلاحية.	(الفكرة المجردة مقابل الفكرة المجسدة) -كيف تتحول الأفكار والمبادئ السامية في مجتمع مأزوم إلى مجرد "أصنام" أو "أقنعة" شعاراتية تخدم الاستعمار بدل تحرير الإنسان.	تفكيك علل الحركات السياسية المعاصرة التي تمتلك شعارات براقة (أفكار مجردة) لكنها تفتقد للفاعلية والمنطق العملي على أرض الواقع لتجسيد تلك الأفكار وظيفياً.

ثلاثينيات القرن العشرين أزمة الصراع بين جمعية العلماء المسلمين والسياسيين، وحادثة اغتيال المفتي كحول.	عاين بن نبي كواليس المؤامرات الإدارية الفرنسية لبث الشقاق بين المصلحين، واستغلال الصحافة المأجورة لتشويه الشرفاء وتوجيه الرأي العام الجزائري نحو صراعات هامشية لتصفية القضية.	(توجيه الصراع الفكري / سلاح الفكرة الخفي) -الاستعمار لا يحارب المجتمعات بالجيوش فقط، بل يدير صراعاً أيديولوجياً خفياً يعيد توجيه أفكار النخبة لتدمير	فهم آليات الحروب الناعمة، والغزو الثقافي، والتحكم الإعلامي الرقمي الحديث الذي يستهدف العقل المسلم المعاصر ويوجهه نحو معارك جانبية تُعطل نهضته.
1931م - 1935م تجربة دراسة بن نبي في باريس (معهد اللاسلكي) واحتكاكه بالشباب والنوادي الطلابية.	خوض بن نبي تجارب ومناظرات فكرية داخل فرنسا، وشعوره بمحاولات التضييق الممنهج عليه من قِبل الدوائر الاستعمارية لمنعه من الوظيفة والبحث بسبب خطورة وعيه الحضاري.	(المقاومة الفكرية) -الفكرة الحية لا بد لها من بيئة حيوية (شبكة علاقات) تحمي خط سيرها وتمنع اختراقها من الدوائر الفكرية المعادية التي تهدف لإحباط المفكر.	تأسيس منطق التمكين المعرفي عبر بناء مؤسسات، وحواضن، ومنصات فكرية مستقلة تحمي الهوية وتجابه محاولات التبعية الثقافية المفروضة من الخارج.
1954م - وما بعدها انفجار الثورة التحريرية الجزائرية ومخاض الاستقلال	معاينة بن نبي للتحولات العميقة التي طرأت على الإنسان الجزائري عندما تحرر من قيود "اللافاعلية" وانتقل إلى الفعل المسلح والتنظيم الجماعي الصارم مضحياً بالذات والمادة.	(الفعالية والتوجيه الحضاري) -إن الثورة الحقيقية ليست مجرد تكديس للسلاح، بل هي "توجيه" للطاقات الثلاث (الإنسان والتراب والوقت) داخل شبكة علاقات اجتماعية جديدة.	بناء نماذج نهضوية للمجتمعات الإسلامية الراهنة تقوم على استثمار الرأسمال البشري والزمني وتوجيهه نحو التنمية المستدامة والتحرر الاقتصادي والمعرفي.

4. خاتمة:

تأسيساً على ما تقدّم في فصول هذا البحث؛ تتبلور تجربة مالك بن نبي الفكرية والواقعية كنموذج استثنائي للمثقّف الذي نجح في المزاوجة بين التشريح السوسيولوجي والمنهج الهندسي لمقاربة الظاهرة الحضارية؛ حيث لم تكن نشأته المتأرجحة بين قسوة الاستعمار، ومتانة التكوين الدّيني، وصرامة التعليم التقني الغربي، مجرّد سياق زمني عابر، بل مثّلت «مختبراً وجودياً» انبثقت منه مفاهيمه المركزية، وقدرته الفائقة على تحويل آلام الاغتراب والصدام مع المركزية الأوروبية إلى أدوات معرفية تجاوزت السرديات السياسية السطحية، لتغوص في الجذور العميقة لأزمة الإنسان المعاصر.

أبرز النتائج المتوصل إليها:

1. إنّ مشروع «بن نبي» الحضاري ليس مجرّد تنظير فلسفي، بل هو «هندسة اجتماعية» قائمة على الفاعلية والنتائج العملية.

2. تكمن الأصالة في فكره في نقل مركز الثقل من «المظلومية السياسية» الموجّهة نحو الآخر، إلى رحاب «المسؤولية التاريخية» الموجّهة نحو الذّات، وهو ما تجسّد بوضوح في مفهوم «القابلية للاستعمار» الذي كشف الفجوة الفاصلة بين الاستقلال السياسي، والتحرّر الحضاري الحقيقي.

3. أثبتت التجربة العملية لـ «بن نبي» في مرحلة ما بعد استقلال الجزائر؛ أنّ بناء الدولة والمؤسسات يظلّ هيكلاً بلا روح، ما لم يُسبق بصياغة الإنسان وتوجيه الثقافة، كما عكس إخفاق البنى البيروقراطية في استيعاب مشروعه «للتوجيه الثقافي» عمق الأزمة المتمثّلة في طغيان «عالم الأشياء» على مراكز القرار.

4. تُعدّ «معادلة الحضارة»: (إنسان + تراب + وقت) رؤية فلسفية تؤكّد أنّ النّهضة فعل يُنتزع عبر حركية اجتماعية واعية، تربط القيم بالفعالية، ولا تُستورد أو تُوهب كسلعة جاهزة.

الاقتراحات والتوصيات:

1. على الصعيد الأكاديمي: يوصي البحث بضرورة الانتقال من القراءات التبجيلية لنصوص بن نبي إلى «قراءة وظيفية» تستلهم آليات هندسته الاجتماعية، لإسقاطها على واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

2. على الصعيد التربوي: مراجعة المناهج التعليمية، بحيث لا تقتصر على تلقين المعارف، بل تركز على بناء «الفعّالية الاجتماعية»، وربط العلم بالعمل والإنتاج.

3. على الصعيد الثقافي: تعزيز الوعي بالذات الحضارية، بعيداً عن الاستهلاك الأعمى لمنتجات الغرب، والتركيز على «عالم الأفكار»، كمنطلق أساسي لأي عملية تغيير جذري.

4. إنّ راهنية فكر «بن نبي» في القرن الحادي والعشرين؛ تؤكّد أنّنا أمام مشروع منهجي متكامل، يتجاوز الخواطر التاريخية، وهو ما يفرض استثمار هذا التراث لضمان الخروج من نفق «الشيئية»، نحو فضاء المشاركة الفاعلة في صياغة التاريخ الإنساني، وتجاوز حالة الاستقالة التاريخية التي طال أمدها.

قائمة المراجع:

1. طرفاوي، أحمد. مالك بن نبي والغرب الأوروبي، ط1، جيجل: دار ومضة، 2022.
2. بن نبي، مالك. مذكرات شاهد للقرن. ط1، الجزائر: دار الفكر للطباعة والنشر، 1984.
3. بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة. ط2، الجزائر: وزارة الثقافة والفنون.
4. بن نبي، مالك .العفن. ط2، الجزائر: وزارة الثقافة والفنون، 2017.
5. بن نبي، مالك. التأملات. ط5، الجزائر: دار الفكر (بالتعاون مع الملكية للإعلام والنشر والتوزيع).
6. Benlahcene, Badrane. The Socio-Intellectual Foundations of Malek Bennabi's Approach to Civilization. London: International Institute of Islamic Thought (IIIT), 2013.
7. Jamsari, Ezad Azraai, et al. "Malek Bennabi and the Development of Human Civilization". International Journal of Advanced Research (IJAR), Vol. 11, No. 01, 2023.
8. Subhani, Zulqernain Haider, Hazizan Md Noon, and Younus Ahmed. "Bennabi's Thoughts on Civilization: Analyzing from a Pluralistic Perspective." Journal oAf l-Tamaddun, Vol. 15, No. 1, 2020.
9. Bougherrafe, H. (2023). The Importance of Thoughts in Malek Bennabi's Civilizational Construction Process. ELWAHAT Journal For Research AndStudies, 16(2), 329-344.
10. Jaafri, Ahmed. "The Colonizability of African and Asian Societies from the Perspective of Malek Bennabi (Historical Insights)." *Psychology and Education*, Vol. 60, No. 2, 2023, pp. 1829-1841.